

لقاء قناة بلادي بالدكتور إبراهيم الجعفري

2009/4/10

(محمد باقر الصدر المعلم الشهيد) (ج2)

المقدم: ألا تعتقد أن أفكار السيد الصدر كانت وليدة ردات فعل؛ لجهة أنه كان هناك حراك ثقافي في الساحة العربية أو الساحة العالمية؟

الجعفري: رد الفعل الفكري يختلف عن رد الفعل السياسي، فعندما نقول: إن السيد الشهيد (قدس الله نفسه) أسس حزب الدعوة الإسلامية قبيل ثورة 1958 فهذا يعني أنه أضفى عليه طابع المبادرة، والفعل في تلك الأجواء من الركود السياسي لدى الكثير من الناس؛ فبادر السيد الصدر (رحمة الله عليه)، ووضع أطروحته تنظيراً وتطبيقاً، ووضع معرفيته، ووضع آلية ارتسمت على شكل حزب الدعوة الإسلامية بوضعه التفصيلي.. هذا كان فعلاً، وليست المسألة مرهونة في عداد الزمن بقدر ما هي عملية فرضتها البورصة السياسية، وظاهرة التفريخ السياسي، ونشوء ردود الأفعال.

ليس سراً على أحد أن الفكر الإسلامي والتنظير للوضع المجتمعي بصورة عامة، من اقتصاد وسياسة وأسرة وكثير من القضايا كان غائباً في الساحة الإسلامية عموماً وفي الساحة العراقية بصورة خاصة، نعم.. هناك كتابات لكنها كانت محدودة، وعادة كانت تفقد الكتابات من الخارج العراقي على الرغم من تخلف وسائط النقل التي كانت موجودة.

كما كانت هناك استفهامات كبيرة تُطرح أمام المثقف العراقي المتعاطف مع الحالة الإسلامية، لكن ثقافته لا ترقى إلى مستوى الإجابة فضلاً عن أنه لا يبادر؛ فخرج الصدر بمشروعه (فلسفتنا، واقتصادنا)، وكان يزعم كتابة (مجتمعنا)؛ وليشعر المتلقي أن في الإسلام فلسفة واقتصاداً نظراً لتشخيص مبكر منه، ودقيق نفذ إلى العمق في الأمة.

المقدم: هل هناك علاقة بين ما طرحه السيد الصدر وسيد قطب؟

الجعفري: سيد قطب (رحمه الله) كان له مشروع في العمق الذي كتب به السيد الصدر من حيث العقيدة في كتاب (فلسفتنا)، ومن حيث النظام الاقتصادي في (اقتصادنا)، وما كانت بواكير الأفكار في (مجتمعنا)، والتي تركها في عدة مؤلفات، كالتفسير الموضوعي، ومحاضرات في التفسير الموضوعي أو الإسلام يقود الحياة أو في محاضرتي (المحنة) وكثير من القضايا يمكن لملمتها، والخروج بها بما كان يزعم كتابته هو في (مجتمعنا).

سيد قطب كتب (في ظلال القرآن) وكتب كثيراً من الكتب في السياق ذاته؛ لأن اختصاصه كان أدب القرآن، حتى رحلته من الإسلام التقليدي العرفي في منطقته والإسلام المبتعد والمراجع إلى الإسلام المختص في الأدب القرآني إلى الإسلام الذي دخل في عمق القرآن، وأصبح سيد قطب.

لم يكن لدى سيد قطب مثل هذا المشروع الذي كان للسيد الصدر.. فالصدر كان في ذهنه مشروع لبناء مجتمع على أساس بناء الفرد باعتباره وحدة بناء المجتمع، فبدأ معه شوطه الأول من حيث يحتاج، نعم.. استفاد من الفلسفات السابقة، واطلع عليها، وأخذ النظرية الحسية لـ(جون لوك)"، وأخذ جدلية (هيجل) بنظر الاعتبار وقرأهما، لكنه كتب شيئاً من وحي اجتهاده واستنباطه؛ فعندما كتب (فلسفتنا) بدأ ليصمم القاعدة والبنية التحتية للفلسفة، ويقدم تفسيراً كاملاً للكون والإنسان والحياة، وكتبه بطريقة أخذ بنظر الاعتبار التحديات التي تواجه هذا الفكر، وما كتبه الآخر.

المقدم: ونبوءة السيد الصدر للفكر الماركسي هل كانت نبوءة سياسية أم كانت نبوءة قراءة؟

الجعفري: كانت قراءة للعمق الاشتراكي والرأسمالي وفق مبتنياتهما ومتبنياته في أن واحد، فعقد مقارنة بين الاقتصاد الإسلامي وبين الاقتصاديين الرأسمالي والاشتراكي بشقيه الشيوعي والاشتراكي؛ فكان ما قرأه مطابقاً للواقع.

المقدم: هل كان للحراك القائم آنذاك في الواقع العراقي المجتمعي أثر في ولادة المشروع؟

الجعفري: كان السيد الصدر متسعاً وممتداً، وقرأ التاريخ، وقرأ الآخر، وكان يستشهد بأراء الآخر، ويناقشه، مثل: (هيجل، وكارل ماركس، ولينين، وستالين) هؤلاء كانت لهم مقولات، وكان ينقلها، ويناقشها كذلك، فمنذ وقت مبكر قرأ نظرية فائض القيمة لكارل ماركس، وجاء بهوامش وتعليقات.

لم تكن كتابات الصدر من موقع التمني والتجريد، إنما من موقع الوعي والإحاطة؛ بهذا الأفكار والمصطلحات، فانطلاقته لم تكن انطلاقة ردة فعل، نعم، وكان الحافز الأكبر لدخول هذا المضمار هو إن السيد الصدر وجد تيارات فكرية مختلفة قد سلبت لب وإعجاب كثير من الشباب، وتحركت كثير من المنظمات في أطر المدن المقدسة فضلاً عن غيرها.

المقدم: هل كان لدى السيد الصدر اعتراض على التفسير الاجتماعي الذي قدمه الدكتور علي الوردي؟

الجعفري: السيد الشهيد (رحمة الله تعالى عليه) إضافة إلى قدرته الاستنباطية المعمّقة وموهبته ونبوغه، يقرأ الآخر، يقرأ الآخر الأقصى فضلاً عن الأدنى، فقرأ اللوحات، وقد ذكر لي أحد إخواني الأعزاء أن الدكتور علي الوردي سأل السيد الشهيد: ألم تطلعوا على كتابنا؟ فقال له: نعم اطلعت. فقال له: ما رأيكم به؟ قال له: علمياً جيد، لكن الذي يقرأ هذا

الكتاب، وينتهي منه يسأل نفسه هذا السؤال: ماذا يريد الدكتور علي الوردي من هذا الكتاب؟

أشعره أنه يفتقر إلى الهدفية، فالسيد الشهيد هادف، وهذه أبرز صفاته، أنه عندما يتناول شيئاً تشعر أن لديه هدفاً يريد أن يحققه، وهذه الهدف ينتظم مع بقية الأهداف حول ناظم استراتيجي واحد، وهو تأكيد الهوية الرسالية الأخلاقية العملية.

المقدم: لنقف عند قضية آثار منجز الصدر، منذ الكتاب الأول آثار الأوساط الثقافية العربية والعراقية، ما وقعه في الحوزة نفسها؟

الجعفري: من كتبوا آثاروا، والذين عملوا آثاروا، والذين أنجزوا آثاروا، والفعل الذي لا يترك ردود فعل لا قيمة له، وأنا أعتقد أن قانون نيوتن (لكل فعل رد فعل يساويه بالمقدار ويتعكس معه بالاتجاه)، صحيح حتى في العمل الاجتماعي.

السيد الصدر جاء بمشروع معرفي ومنهجي وعملي سلوكي، ومن شأن هكذا عمل كبير أن يترك ردود فعل، ففي أي مجال اقتحمه أوجد فعلاً كبيراً، وآثار ردود فعل، فإذا سألتني عن الحوزة أقول لك: نعم حتى في الحوزة آثار ردود فعل؛ لأن فعله كان كبيراً، وهذا ليس نقصاً فيه.

المقدم: هل كان الإصلاح هدفاً في فكر الشهيد الصدر؟

الجعفري: السيد الصدر قسّم الحركات واتجاهات الحركات على ضوء ما مئني به المجتمع، فحدّد وجهتين، وجهة تحاول أن تقدّم علاجات آنية، وتجزئية وسماها (حركات إصلاحية)، وقصد بها إصلاح الآني من دون العبور إلى الاستراتيجي والتغلغل من السطح إلى العمق والجذور، وهذا المصطلح مرهون بظرفه؛ لذلك قال هذا النوع من الحركات الإصلاحية لا يصل إلى الحد الذي يقدم لنا معالجات جذرية بعيدة الأمد، وجعل ما يقابلها الحركات التغييرية، وهو الجهة الأخرى.. الحركات التغييرية تتولى عملية إعادة بناء المجتمع من خلال إعادة بناء الإنسان، فقال: نحتاج ونحن نتحرك لبناء المجتمع إلى العمل على المسارين معاً، الإصلاح الآني لتلبية حاجة آنية لكن ليس بديلاً عن الحركة التغييرية.

المقدم: يبدو أن السيد الصدر ظاهرة منفلة في الزمن العراقي، فلم نجد مفكراً إسلامياً ارتقى إلى مستواه.. كيف تفسر هذا الأمر؟

الجعفري: السيد الصدر ضاق به عصره، وستتسع له العصور المقبلة، شأنه شأن أي عظيم، وكثير من عظماء العالم اليوم نقرأ لهم من موقع الانبهار، لكنني أعتقد أن زمن الكتابة كان زمن الضغط، وزمن الحصار.. من ينشأ أكبر من حجم الناس من حوله، يعيش حالة حصار، فائمة أهل البيت (عليهم السلام) كانوا هكذا؛ لذلك تمثل أمير المؤمنين (عليه السلام) قول الشاعر:

لألفينك بعد الموت تندبني
وفي حياتي ما زودتني زادي

السيد الصدر (رحمة الله عليه) كتب في ظرف كانت الناس لا تستوعب ما يقوله؛ لذلك عانى، وهذه ضريبة الإنسان الذي يكون عظيماً في تفكيره، وعظيماً في سلوكه، وعظيماً في مواقفه.

أعتقد أننا بحاجة لقراءة جديدة لفكر الصدر بعيداً عن ضغوط الحسد وضغوط القراءة السطحية للرجل، والشخصنة والاتهامات بالشخصنة.. بعيداً عن الحساسيات الطائفية فالسيد الصدر (رحمة الله عليه) كتب للإنسانية وللمسلمين جميعاً، فليعتز، وليفتخر المسلمون كلهم من دون فرق بكل ما كتبه السيد الصدر.

المقدم: ماذا عن طلاب المدرسة الصدرية؟

الجعفري: بالنسبة لطلاب المدرسة الصدرية فهم يتفاوتون بالتلقي كتفاوت أي مبدع وأي قائد وأي رائد وأي عبقر، كما يتفاوت الآخرون بحجومهم، فالمعطي يعطي بشكل متساوٍ لكن المتلقين يتفاوتون بالأخذ، كالسماء التي تنزل المطر بشكل واحد لكن الأرض تتفاوت بالتلقي.

السيد الصدر قدّم مجموعة من الفقهاء، وبرعوا بالفقه والأصول والعلوم الأخرى.

المقدم: ما حكاية النشيد "باقر الصدر منا سلاماً"؟

الجعفري: كتبه السيد الفاضل العالم داود العطار (رحمة الله عليه) بناءً على طلب قدمه إليّ اتحاد الجمعيات العراقية في المهجر، وهو عبارة عن اتحادات إسلامية، وكان لكل اتحاد ممثلان مرتبطان بي، فأبلغني أحد الإخوة بالنيابة عنهم وهو السيد محسن الموسوي بمناسبة الذكرى الأولى لاستشهاد السيد الصدر، في عام 1981 بالضبط، وتحديدًا في الشهر الثالث أو بداية الشهر الرابع، قال أريده يوم الجمعة، أول الشهر الرابع، فاتصلت بالسيد داود العطار (رحمة الله عليه)، وكانت تربطني به علاقة عميقة ومنتشعبة، فقلت له نريد شيئاً عن السيد الشهيد، فقال: نعم، فقلت له: أفضل أن تكتب نشيداً عن السيد الصدر. قال: نعم، فقال هل في بالك لحن معين؟ فقلت له لحن نشيد الشهيد مطهري (رحمة الله عليه)، فقال لديك الكاسيت، قلت له: لا، فقال أنت مشغول، فدعني أجلبه من الإذاعة، فجلبه منها، وبعد أن أكمله اتصل بي هاتفياً وقرأه لي، فجئت يوماً، فوجدت السيد داود

منزجاً جداً ومتألماً، وهو ليس له علاقة بتنظيم الدعوة كحزب وتنظيم، لكن كفكر وتاريخ وتعاطٍ فهو معنا في صميم الدعوة، فسألته: لماذا أنت متألم؟ فقال: اتصلوا بي من إذاعة طهران، يقولون لي ارفع كلمة الدعاة والدعوة من هذا النشيد، ونحن مستعدون لتبني هذا النشيد، فتألمت لذلك، وللأمانة قال: (ألم يعلم هؤلاء أن الدعوة تسري في كل قطرة من قطرات دمي)..
هذه قصة النشيد.

المقدم: ماذا بقي من تراث السيد الصدر، من التراث الفاعل وتحديداً بعد أكثر من 29 عاماً على استشهاده؟

الجعفري: تراث السيد الصدر ضاق به عصره، وبدأ عصر التفق والامتداد والإثراء.. السيد الصدر أودعنا ذخيرة رائعة ومتنوعة في كل علم من العلوم وهو صاحب نظرية في التفسير لا أقول إنه أكمل نظريته في التفسير الموضوعي، إلا أنه تفسير للواقع بالقرآن الكريم، أو تفسير القرآن بالواقع، أي تفسير القرآن من خلال الواقع، وهو غير التفسير الموضوعي للسيد الطباطبائي (رحمة الله عليه) أو تفسير القرآن بالقرآن، فالموضوع عند السيد الصدر يختلف عن الموضوع عند السيد الطباطبائي صاحب تفسير الميزان..

للسيد الصدر أطروحة في تفسير السيرة، ويعتبر أئمة أهل البيت كأنهم إمام واحد بمراحل مختلفة، فهذه نظرة رائعة منهجية غير نابعة من ذاته فصلاح الإمام الحسن (عليه السلام) ليس نابعاً من ذاته، وكذا ثورة الإمام الحسين فإنها غير نابعة من ذاته، والتفسير الموضوعي في القرآن..

لقد ترك لنا السيد الصدر تراثاً رائعاً تتغنى به الأجيال في معالجة حركة المال وعملياته الاستثمارية بما يطابق الشريعة المقدسة ويتوافق وتطورات الواقع وهو كتاب (البنك اللاربوي)، كما اقتحم حقلاً فائق الدقة في نمطيه القديم والحديث وهو علم المنطق، ووضع كتابه (الأسس المنطقية للاستقراء).